وفي صيف ذلك العام أتيحت لي الفرصة لزيارة بريطانيا، وكانت أصداء محاضرات ريث ما زالت تتردد في الأوساط الأدبية، وأبرز مظهر لذلك تجلّى في توافر كتاب إدوارد سعيد في أغلب المكتبات العامة والخاصة ودور بيعها، حيث كان يحتل مكان الصدارة في تلك الدور من بين مئات الكتب، وكثيراً ما كنت تسمع الحديث عن الكتاب وكاتبه داخل تلك الأمكنة من القراء الذين كانوا يتجاذبون أطراف الحديث الجانبي حول المحاضرات والكتاب وكل ما له علاقة بادوارد سعيد. وفي مكتبة الدراسات الشرقية بلندن سمعت مدير المكتبة يتحدث مع بعض الطلبة العرب وهو يقول: مضت فترة لا نستطيع أن نهرب فيها من إدوارد سعيد، وهو يلاحقنا صباح مساء، ويقصد بذلك التغطية الإعلامية التي كان يحظى بها إدوارد سعيد في وسائل الإعلام الصباحية والمسائية أثناء إلقائه مما لمحاضرات ريث على فترات زمنية متباعدة، كما هي العادة في توزيع تلك المحاضرات. وفي استقبال دعيت له امضى أحد المدعوين من جامعة اكسفورد وقتاً وهو يتحدث عن إدوارد سعيد مشيراً إلى أنه أكثر من سياسي، لأنه بموهبته الفذة «يجعلك ترى الحق». وهل أرفع من ذلك شأناً في الخطاب الإنساني؟

وإدوارد سعيد ليس لغز كبيرٌ كما يقول تمام البرازي في مقابلته معه، بل إنه عطاء أكبر من أي لغز؛ عطاء خير، يبتعد عن الأضواء كي لا يضيع وقته في غير العطاء. ويحق له أن يردد ما تقوله شخصية نوسترومو في إحدى روايات كونراد المحببة لديه. يقول نوسترومو لصاحب المال والجاه جولد:

«إن اسمي أصبح معروفا لدى الجميع... ماذا تستطيع أن تفعل لي أكثر من ذلك!».

وتدلل مواقف إدوارد سعيد على شخصية صلبة متماسكة تنظر إلى السياسة على أنها تلقائية وطنية تنبع من عمق فكري صادق ومن عاطفة لا يشوبها شائب. وفي مقابلته مع مجلة الوطن العربي (ومقابلاته الصحفية نادرة) تذكر المجلة أنه لا ينتمي إلى أي حزب سياسي لكنه يدهشك بفعاليته وراديكاليته ويقول: «**أنا لست سياسياً ولا اتكلم كسياسي**»، أي أنه لا يرى في السياسة مهنة تمتهن وقت الحاجة أو من أجل حاجة، أو تخصصا في ميادين السياسة؛ سياسة فكر والتزام.

أي فخر لهذه الأمة بهذا المثقف الفذ الذي أصبح يمثل هوية عربية مرموقة تقلل من غربة الحضارة العربية في بلاد الغرب. كل من يعرف إدوارد، وكل من قرأ له وكل من عايشه شوق الحياة وارتباط النص الأدبي بالحياة، يتمنى لإدوارد مزيد العطاء وطول البقاء.

* استاذ الادب المقارن في الجامعة الأردنية

«الاستشراق» الموقف وردود الفعل



د. إبراهيم السعافين *

حين صدر كتاب «**الاستشراق**» لإدوارد سعيد أستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا عام ١٩٧٨ أثار ردود فعل واسعة جعلت هذا الكتاب من أبرز الكتب التي صدرت في العالم في تلك الحقبة. إذ يتميز هذا الكتاب بثقافة موسوعية قلّ لها نظير، مما يجعل القارىء يدهش لهذه المعرفة النوعية التي مثّلها إدوارد سعيد لتكون حصيلتها هذا الكتاب الفريد، وإدوارد لا يعمم ولا يجتزىء، وهو يورد مراحل الاستشراق من خلال

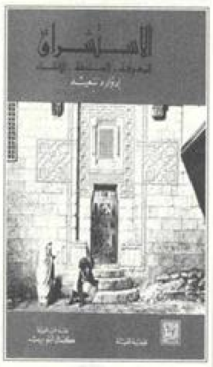
ممثليـهـا الكبـار، وإنما يعـتـمـد الوثائق الفكرية والتاريخية والسياسية والأدبية يستنطقها ويضعها في موضعها الصحيح ضمن منهجيّة واضحة المعالم.

وإذا كان إدوارد سعيد قد أفاد من فوكو في كتابيه «نظام الخطاب» «وحـفـريات المعـرفـة» على وجـه الخصوص وأفاد من موقفه من ثنائية السلطة والمعرفة، وهو أمر يعترف به إدوارد سعيد بثناء واضح، فإنه لم يفرض مـقـولات نظرية على الواقع، ولم يلغ الجـانب التاريخي أو الاجتماعي ليثبت مقولات جاهزة على حركة الاستشراق، وإنما جاءت أحكامه منهجية تتسّم بالدقة والجرأة والصراحة والشمولية التي قد لا تعجب الذين يميلون إلى الهدوء والبرود العلمي والحياد المبالغ فـيه طلباً للسـلامـة أو الوقـار الأكـاديمي. فـقد وضـع الاستشراق ضـمن معطياته الموضوعيـة المستندة إلى المادة العلمية المتوافرة في إطار حركة المجتمع الغربي وعناصرها المختلفة، وآية ذلك أنه تمكن من تقسيم حركة الاستشراق إلى مراحل لها قسماتها المختلفة، فلم يكتف بتقسيم الاستشراق إلى كلاسيكي أو حديث وإنما بيّن ملامح هذا التطور في كلا المرحلتين.

وإدوارد سـعيد لم ينطلق من مـوقف «ردود الفـعل» وهو موقف ليس مرفوضاً رفضاً مطلقاً أصلاً، فلا بد أن تشغل الباحث قـضـيـة ترتبط به ارتباطاً ذاتياً وهذا هو شأن الدراسات الإنسانية التي لا تزعم لنفسها امتلاك الحقيقة المطلقة التي لا تقبل الجدل أو الاخـتـلاف، ولا سيما إنه ابن قضـية، اللهم إلا إذا كان الصراع العربي الإسـرائيلي أو الصـراع العـربي الغـربي أو الصـراع الفلسطيني الإسرائيلي يعـد ردة فـعل... إن أية قـضـيـة تسـتـحق البـحث لابد أن تـتـصل بالانسـان وبـوجـوده ويمكنها أن تفسر العوامل المتصارعة في مكان ما أو في زمان ما.

لقد بنى إدوارد سعيد «**الاستشراق**» على ملاحظات دقيقة للنصوص التي أنتجها الاستشراق عن «الشرق»، حتى أصبح الاستشراق مؤسسة موطّدة الأركان تنظر إلى الشرق باعتباره موضوعاً، وتظلّ خارجة عنه في الوقت عينه، ولاحظ أدوارد سعيد أن الاستشراق كان يستجيب للثقافة الغربية التي أنتجته أكثر من استجابته للشّرق الموضوع. فليس هناك صورة موضوعة للشّرق بقدر ما هنالك شرق المؤسسة الاستشراقية التي تنطلق من افكار وشروط ومعايير سابقة. ولعّل هدف الكتاب، الذي اعترف سعيد بأنه قاصر عن استقصاء كلّ ما كتبه المستشرقون، هو أن يقدم للمفكرين الغربيين الأصول الفكرية التي بنوا عليها تصوراتهم وأن ينقد الفرضيات التي غدت من المسلمات والبديهيات التي باعتبارها سلطة أو قـوّة، توجه المعرفة التي لا تبدو موضـوعـيـة أبداً أو محايدة. وهو لا ينكر أثر البعد الشخصي أو التجربة الشخصية في دراسة الاستشراق فهي نقطة البداية أو الدافع الجزئي في الأقل، ولكنّه في النهاية أثر يدفع نحو الآلية الموضـوعيـة أو النهج العلمي الذي يـتـخـذه دارس الإنسانيات نحو التعرف إلى الظّاهرة ودراستها دراسة مستوفية بكل الأدوات المنهجية المتاحة. لقد اكتشف إدوارد سعيد أن الأدب والثقافة ليسا بريئين سياسياً أو تاريخـيـاً، وتوصل إلى أنه لا بد من دراسـة المجـتـمـع والثقافة الأدبية ومحاولة فـهمهـا على صعيد واحد، ووصل إلى اقـتـنـاع بأن ثمـة تشـابـهـا واضـحـاً بين اللاسـامـيـة والاسـتـشـراق فـيمـا يتـصـّل بالأسـباب التاريخيةوالثقافة والسياسه. إن إدوارد سعيد، وهو ينطلق من رؤية إنسانية عالمية ويعيش في قلب الثقافة الغربية يكتب عنها ومنها، وليس من خارج الحضارة الغربية أو من خارج الوعي أو المؤسسة كما فعل معظم المستشرقين أو كما فعل الاستشراق باعتباره مؤسسة يطمح إلى تفكيك بنية الشّرق في وعي الثقافة الغربية بعـيـداً عن التـثـبـيت والتنميط والتـعـمـيـم والأحـادية والفانتازيا والتعصّب التـاريخي والعنصرية والعرقية واللاسامية الجديدة. لقد مثل الاستشراق ثنائية السلطة/ المعرفـة، أي كـان تجلياً للقـوة في صـورة السـيطرة الثقافية، وإدوارد سعيد يطمح إلى أن يتحقّق نمط جديد من التـعـامل مع الشـرق يقـدم على إلغـاء الثنائيـة الاسـتقطابيـة الشرق/ الغرب، بعيداً عن فكرة الطبائع الثـابتـة التي سـيطرت على الثـقـافـة الغـربيـة وعـززهـا الاستشراق باعتباره بنية معرفية ذات سلطة خطيرة في فهم الشرق وتحليله ثم تثبيتها في وعي الثقافة الغربيّة.

وإدوارد سعيد، على الرّغم من سعيه إلى هدف إنساني يتجاوز القوميّة وأشكال التمايزات والاختلافات الأخرى بين الأفراد والشعوب والأمم، لا يتحدّث من فراغ أو يبني فروضه على تجريدات ذهنية كما يحلو للبعض أن ينظر للمفاهيم الإنسانية، أو تصوّر مستقبل الإنسان، وإنما ينطلق من وثائق ومادة علمية، كما قدمنا، ويفحص هذه الوثائق ليصل إلى الأسس والمرتكزات العميقة للقوّة التي توجّـه المعـرفـة، وليـؤكّد لنا أن السلطة هي التي توجه المعـرفـه، فليست الثـقـافـة الغـربيّـة ومنهـا مؤسـسـة الاسـتـشـراق بريئـة أو مـوضـوعـيـة، وإنما تتـوسل بالموضوعية والبحث لتثبت فكرة مستقرة عن الشرق في أذهان أصـحـاب القـوّة، ولـعل من أهم الأمـثلة الذكـيـة التي قدمها إدوارد سعيد ما نقله عن بلفور وكرومر من أعمدة الاستعمار البريطاني الذي حكم الشرق، إذ قرأ سعيد الفكرة المسـتـقـرّة في فكر بلفور التي لا تتـجـاوز، رغم البلاغة التي يغلفها بها عن تاريخ الشعوب المحكومة من مثل مصر وعظمتـهـا في الماضي، أنّ هذه الأمم لا تملك



القدرة على حكم الذات، ويستعرض تاريخ هذه الأمم الشرقية فلا يجد أثراً لحكم الذات فيها وإنما عاشت في ظل الطغيان أو الحكم المطلق. ويخلص إلى نتيجة تقول إن على الحاكم ألاّ يتهاون مع المحكوم، فالمحكوم يعرف أن صاحب القوة/ الاستعمار يأتيه بالخير، وإن بدا من المحكوم ما ينم عن خلاف ذلك، فقد أظهر شغباً، وكما يقول إدوارد سعيد فإن أي مصري يرفع صوته هو من المحرضين الذين يرغبون في إثارة المتاعب، وأما المواطن المطلوب فهو الذي يغض الطّرف عن ممارسات الاستعمار. ومن حديث كرومر ما يوضح أن الأجناس التي تخضع للاستعمار لا تستطيع أن تميز ما هو خير لها فالشعوب الشرقية ذات طبائع ثابتة، وتفاوتها ليس تفاوتاً أساسياً. في حين يرى كرومر اختلافاً أساسياً بين العقلية الغربية والعقلية الشرقية، فالشرقي بخلاف الغربي يفتقر إلى المنطق والمحاكمات العقلانية ويحكم تفكيره التناقض. ويخلص إدوارد سعيد من خلال فكر بلفور وكرومر إلى هذه الثنائية الاستقطابية بين الشرقي والغربي فكرياً ونفسياً وأخلاقياً. فالشرقي لا عقلاني ولا أخلاقي غير ناضج في حين يبدو الغربي نقيضه تماماً. وهذا التمييز التعسفي الحاد بين الشرق والغرب ووضعه في أطر تخدم هذا الاتجاه هو الذي يحتل المركز من نظرية الاستشراق،وهو اتجاه مستمر منذ بلفور وكرومر حتى هنري كيسنجر الذي يؤسس خطابه المعرفي استقطاباً بين الولايات المتحدة والعالم، واستقطاباً بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية.

ويبدو أنّ الشّرق في الثقافة الغربية، بحكم الخلفية التاريخية والموروث الثقافي والإيديولوجي، يعني بشكل واضح العالم العربي والإسلام، ويبدو أنّ الرواسب التاريخيّة لم تخضع لشيء من التبديل في ظل الاستشراق الذي جاء في اطار القوة والهيمنة وداعماً لهما، فبدا العربي هو المختلف والنقيض للغربي فإذا كان السّلام يقع في أعلى سلّم القيم عند الغربي، وإذا كان الغربي شديد الوعي بقيمة الوقت فإنّ الانتقام من أهم أولويات العربي، ولا يمثل الوقت لدى العربي قيمة تذكر. وتنسحب مجموعة القيم الإيجابية الرائعة على الغربي في حين يبدو العربي خلواً من أية قيمة إيجابية، مما جعل الفرصة متاحة أمام أسطورة تفتقر إلى الضوابط حول الشّرق. وبدت صورة الإسلام بالتالي في إنتاج الاستشراق ليست الصّورة الحقيقة للإسلام التي تنتجها الذات بصورة موضوعية بقدر ما هي الإنتاج المسبق في وعي الآخر أو إسلام أنتجه مسيحيو القرون الوسطى.

وتبدو صورة الرسول صورة وعي مزيّف، أنتجها خيال المغامرين والأدباء الخياليين وأهواء المتعصبين،



صورة لا تستند إلى حقائق موضوعية أو وثائق قابلة للتأويل أو تباين الآراء وإنما هي محض اختلاق وروايات تسلك في إطار الأساطير، وهي على أي حال تصبّ في تغذية المشاعر الغربيّة الشعبيّة الملتهبة ضد ديانة يناصبها الغرب، تقليدياً، العداء. فنبيها في نظر الاستشراق منتحل ومجدِّف، ولعلّ أثر دانتي والكوميديا الإلهية غير خاف في تشكيل الوعي الثقافي الذي بني عليه الاستشراق لا باعتباره محاولة لفهم الآخر أو اكتشافه بل بناء الاستشراق من معطياته هو ومنحه الصّورة التي يريدها ووضع تفاصيلها من خلال التعميم والتنميط والثنائية العرقية العنصرية الحادة. ولقد استخدم إدوارد سعيد مصطلح الاستشراق هنا بمعنى أنه أحد فروع المعرفة التي تناولت الشّرق باعتباره موضوعاً للتعلم والاكتشاف والتطبيق إلى جانب الأحلام والصور والمفردات التي اختصت بالتعبير عن الشّرق.

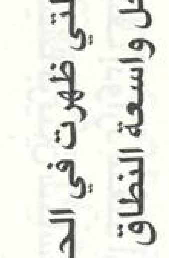
إن الأمر المثير للانتباه التباين الواضح في النظرة إلى الخير والحق والجمال في بعض أطروحات الاستشراق ولا سيمّا التي مهدت للاستعمار ونظرت له عند وقوعه وسوّغت أفعاله ومشروعاته للمستقبل، ولعلّ ما قاله فورييه حول مشروع نابليون في مصر يعكس هذه الحقيقة المؤلمة: «وأراد نابليون أنّ يقدّم إلى الشرق مثلاً أوروبياً نافعاً، وأن يجعل حياة الناس في نهاية الأمر أسعد مما هي عليه، وييسرّ لهم الحصول على كل الحسنات والمزايا في حضارة مكتملة»(ص.٨٥) وظل الاستشراق يعمم الجزيئات ويجعل من التعميمات قوانين حول الطبيعة الشرقية الثابتة التي لا تتغيّر، فثمة مزاج شرقي وعقلية شرقية ونموذج شرقي فالشرق الذي يتحوّل إلى نصوص يتُوهم أنها مستمدة من الواقع ما هي الا جزيئات استحالت إلى تعميمات ثم إلى قوانين ثابته تحكم صورة الشّرقي في عين الغربي المتفوق القويّ. ويرى إدوارد سعيد أن وُصف مصر أصبح نموذجاً أعلى للجهود التي قامت من أجل تقريب الشرّق من أوروبا، وبدا الشرق الإسلامي يشير إلى قوة الشرق لا إلى المسلمين أو إلى تاريخهم. وقد وصف فعل دوليسبس في شق القناة بأنه تذويب للهوية الجغرافية للشّرق بجرّه داخل الغرب لنفي ما يمثله الإسلام من تهديد. ويرى سعيد أن الاستشراق تحوّل من البحث إلى مؤسسة امبريالية ويذهب إلى، أن الأفكار التي استنبطت حول الشرّق لها أغراض سياسية، وإن جمع المعلومات وإقامة البحوث في هذا الصّدد تصل إلى تعميمات ثقافية وعرقية وتاريخية مما يبعث القلق في الضمائر.

وقد عرض إدوارد سعيد ما كتبه الرحالة من الأدباء الكبار من أمثال فلوبير، وما سجلوه من صور فردية عممت تعميماً سيئاً حتى باتت صورة الشرق تتجلّى في

القرادين والمهرجين والعوالم والبغايا والأولياء الموهومين والممارسات الخرافية التي لا يعرفها الشرقيّون في حياتهم وإن عرفوها فبالسمّاع باعتبارها حوادث نادرة أو مستحيلة الوقوع. وكان من السهل على مستشرق مثل جب أن يشير إلى أن المسلمين ينفرون من العمليات الفكرية العقلانية مستشهداً بظاهرة «الافتقار إلى الإحساس» (ص.١٠٦) التي عدّها الأستاذ ماكدونالد خاصّية فارقة تميز الشرقي عن الغربي والصورة المرجعية لكل فضيلة. وواضح أن هذا التثبت الذي لا يستند إلى عناصر موضوعية قد بدت له تطبيقاته السياسية حتى إن مقاومة العرب الفلسطينيين للاحتلال الصهيوني والاستيطان صُنّف باعتباره «عودة إلى الإسلام» ووضعت في صيغة مقاومة إسلامية لشعوب غير إسلامية، حتى بلغ الحدّ باستقبال الغربي للشرقي على اعتباره صورة مشوهة ممسوخة غير إنسانية، وفي إطار الإنتاج والاستهلاك أصبح الشرقي الذي يمتلك النفط والمال، فيما بعد خطراً على الحضارة الإنسانية وقيمها النبيلة: أي الحضارة الغربية، وقد اقتبس سعيد من مقالة أنور عبد الملك المعروفة «الاستشراق مأزوماً» ما يؤيد أطروحته. وقد استطاع سعيد أن يضع آراء المستشرقين في مواضعها فيفحص الافكار فحصاً موضوعياً تماماً كما حدث مع توماس كارلايل الذي عد الرسول من الأبطال، فقدرّ له دفاعه عنه، ولكنه بيّن أن هذا الدفاع لم يكن خالياً من الملاحظات الخطيرة، وظل الشرق في عرف هذه الفئة التي ينتمي إليها كارلايل بعد ثورة فقه اللغة في أوائل القرن التاسع عشر في منزلة الخاضع للغرب. وقد سحب أثر الاستشراق على ماركس في فحص نظرياته في الثورة الاجتماعية الاقتصادية. وقد دعم الرحالة على اختلاف فئاتهم وأدوارهم بنية المؤسسة الاستشراقية، بحيث ظلت حادثة فردية أو جزئية مصدر تعميم وإصدار قوانين لها صفة الطبع والطبيعة الثابتة والمزاج والخلق والسلوك ونحو ذلك. وظل الشرق في الأذهان وفي التصورات صورة عن الوهم الشخصي. ونعجب لأدباء كبار كيف استقبلوا الشّرق من خلال صورة نمطيّة ثابتة على نحو ما يقول لامارتين «هذه الأرض العربية هي أرض العجائب، كل شيء يزهر هنالك، وكل ساذج أو متعصب يمكن أن يصبح بدوره نبيّاً».

ولقد أصبح الشّرق لدى روائي مثل فلوبير مرتبطاً بالفانتازيا الجنسية، من مثل عالم الأميرات والحريم والعبيد والراقصات ونحو ذلك. ولا يخجل أحد من جهله فيسرف في إصدار تعميمات عن الشرق وعن ثقافة الشرقيين وعقليتهم وطبيعة مجتمعهم. وهي كما يرى سعيد إرادة عامة وليست فردية لها صورتها القومية.

« الاستشراق » من أبرز الأعمال التي ظهرت في الحقبة الأخيرة التي أثارت ردود فعل واسعة النطاق



وإدوارد سعيد، كما أشرنا سابقاً، وهو يتحدث عن البنية الاستشراقية كان حذراً في إطلاق الأحكام العامة كما يزعم بعض من انتقدوه، فهو، وإن انطلق من فروض متماسكة توهم بالثبات، فإنه كان يرصد بذكاء التحولات في الفكر الاستشراقي على نحو ما نرى في إيراده ردّ بيرتن على ماكولي وفروضه السّاذجة، وعدّها « **نتيجة المعرفة المكتسبة عن الشّرق بالعيش فيه، برؤيته فعلاً رؤية مباشرة، ومحاولة رؤية الحياة الشرقية رؤيه حقيقية من وجهة نظر شخص يعيش في لجتها» بيد أنه يستدرك بقوله إن ما كتبه بيرتن « كان يعني شهادة انتصاره بين الفنية والفنية على نظام المعرفة الشرقية المخزي**» (ص.١٩٦).

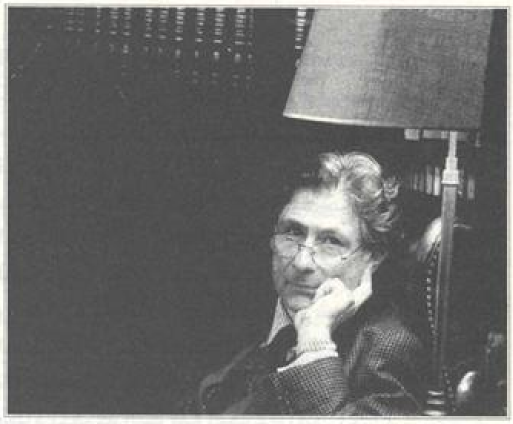
وظلت الفكرة الأساسية التي تجد لها الأمثلة باستمرار عند سعيد هي أن الاستشراق سلطة وقوّة قبل أن يكون معرفة إذ يقول سعيد: « وما أراه هو أن الاستشراق، في أصوله، نظرية سياسية تسلطت على الشرق لأنّ الشرق كان أضعف من الغرب» ويخلص سعيد إلى القول:

« فالاستشراق، من حيث هو جهاز ثقافي، هو عدوانية، ونشاط، ومحاكمة، وإرادة للحقيقة، ومعرفة. والشرق وجد من أجل الغرب، أو هكذا بدا لعدد لا يحصى من المستشرقين» أصحاب الموقف المتعالي بخلاف الأثر بين الذين كانوا ينظرون للماضي المشرف.(ص.٢٠٤).

وكان سعيد دقيقاً حين كشف عن الطريقة التي أسلم بها الاستشراق الشّرق للغرب عن طريق مقدرات النشر وعن طريق ترجمة النصوص وتفسير الحضارات وسواها، إذ يرى أنّ العلاقة كانت بين المستشرق والشرق تأويلية بصورة أساسية.

إن الذين عاشوا في الشرق لم ينسوا السلطة أو القوة التي يستندون إليها، واكتفوا بالصورة الثابتة على نحو ما حدث لدى لورنس. وإذا كنّا نرى بعض الإشارات إلى دور الشرق القديم فإن الاعتزاز بالعقلية الغربية يتضح في الثقة بنفي تهديد الشرق عن طريق تحليله وفهمه، إذ رأى بلفور أن مجرد رغبات سبعمائة ألف عربي لا أهمية لها مقارنة مع مصير حركة استعمارية أوروبية في جوهرها. وقد استمر دور المستشرق في فهم الشّرق نيابة عنه في نفي التحديث والتطوير في عدد من المسائل الرئيسة في حركة المجتمع والحياة، وجعل المؤسسات الكلاسيكية أساساً في فهم الإسلام والمجتمع الإسلامي.

ويظل إدوارد سعيد يلتقط الجوانب الإيجابية في فكر

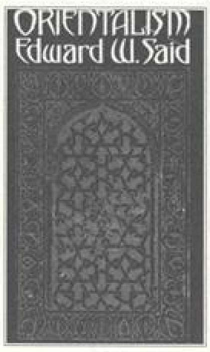


المستشرقين بموضوعية من مثل إشادته بماسنيون وبيرك، ولكنه أخذ على ماسنيون رؤية الشرق الإسلامي على أنه القديم وأن الغرب هو الحديث. وليس من الممكن متابعة كلّ الأفكار والملاحظات التي أوردها سعيد في «الاستشراق»، ولكنّ المؤسسة الاستشراقية كانت دعمت فكرة خطيرة أشد الخطر وهي التعميم وتقويم القوانين والطبائع العامة لدرجة أن «المبدأ الغربي بحق مقاومة الحكومة الفاسدة أجنبي على الفكر الإسلامي» وهو آت من استقراء انتقائي ناقص غير موضوعي للتاريخ، أو اجتلاب أمثلة من الواقع لتكون أمثلة عامة.

وسنحاول فيما يأتي أن نورد أهم الانتقادات التي وجهت إلى «الاستشراق» من مفكرين مستشرقين وعرب ثم نورد بعض ملاحظات رئيسة عليها. وبوسعنا أن نشير باختصار إلى ثلاثة من المفكرين منهم: صادق جلال العظم وبرنارد لويس اللذين هاجما الكتاب كل منهم بطريقته الخاصة ومن منظوره الخاص، ومكسيم رودنسون الذي أطرى الكتاب إطراء كبيراً ولكنه لاحظ عليه ملاحظات.

لقد انطلق صادق جلال العظم في هجومه على إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق والاستشراق معكوساً» من فكرة الطبائع الثابتة التي قام كتاب إدوارد سعيد في جزء مهم منه على تفنيدها ورفضها إذ يقول:

«لا شك أنّ هوميروس واسكيلوس ويوربيدس ودانتي والقديس توما الأكويني وكل العظماء من ممثلي التراث الثقافي الأوروبي كانوا يعتنقون، إلى هذا الحد أو ذاك، الآراء المحيطة أو الشائعة في محيطهم وأوساطهم حول الشرق وحول كل ماله علاقة بالشعوب الأخرى ومجتمعاتهم ولغتها وعادتها وتقاليدها وديانتها مهما كانت مجحفة أو متعصبة أو خاطئة أو سخيفة. كما أنه لا شك في أن الاستشراق قد استخدم آراء هؤلاء العظماء ومواقفهم وأحكامهم لتثبيت وضعه وتعزيز قوته



اكتشف إدوارد سعيد أن الأدب والثقافة ليسا بريئين سياسياً أو تاريخياً



وإضفاء الشرعية على نفسه وعلى مشاريعه وتوجهاته، إلا أن الاعتراف بهذا الواقع شيء والقول مع إدوارد سعيد بإن الاستشراق (بمعنى القدحي) هو تصوّر ملازم «للعقل» الأوروبي يمتد في خط مستقيم عبر الحقب والعصور من هوميروس إلى المستشرق المعاصر جوستاف فون غروبناوم ومروراً بدانتي وفلوبير وكارل ماركس، فهو شيء آخر تماماً نرفضه لأنه يكرس عملياً أسطورة الطبيعة الجوهرية الغربيّة (أو الأوروبية) الثابتة بخصائصها المزعومة (وعقلها الذي لا يتغير إلا في أحواله التاريخية وأعراضه الطارئة زمنياً).

ويبدو أن ما يذهب إليه العظم من قبيل التبسيط المخلّ، فإذا كان العظم يقرّ بأن هدف «الاستشراق» هو الوصول إلى القضاء نهائياً على مقولتي «الشرق» و«الغرب» بالمعنى الميتافيزيقي للعبارة فإن استنتاجه بأن هذا الكتاب يرجعنا بصورة ضمنية إلى نمط من التفكير والتعلم يقوم على التسليم الصامت بأسطورة الطبائع الثابتة والخصائص الدائمة، أو أنه يعطي مصداقية وجدارة، لميتافيزيقيا الاستشراق التي تحول التسميات الجغرافية النسبية إلى مقولات ضرورية استنتاخ مظلل وخاطيء. فإدوارد سعيد، كما ذكر العظم نفسه، يرفض هذا التقسيم إلى عقل عربي وعقل غربي، ويرفض قسمة الأقاليم الجغرافية ولا يعمم تعميماً مطلقاً، ولا يتنكر للتاريخانية كما زعم بعضهم، ولكنه يصف ما جرى وما يجري حتى الآن في البؤر المؤثرة، ولا سيما في إنتاج صورة العربي والمسلم في وعي الإنسان الغربي، وهو يتجاوز الاستشراق بمفهومه التقليدي أو المدرسي، ليتحدث أيضاً عن التيار الفكري والثقافي العام الذي تنتجه الإمبريالية ولا سيما في علاقة المركز بالأطراف على نحو ما نرى في كتابه «الثقافة والإمبريالية».

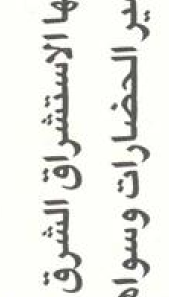
ومن الذين هاجموا إدوارد سعيد في «الاستشراق» هجوماً عنيفاً استخدم فيه أسلحته المشروعة وغير المشروعة برنارد لويس، أظهر فيه ميوله الصهيونية بطريقة سافرة إذ يقول: «إن الممثل الأكبر لمناهضي الاستشراق في الولايات المتحدة اليوم هو إدوارد سعيد وكتابه «الاستشراق» الذي صدر عام ١٩٧٨ واستقبل بترحاب وسيل من المراجعات والمقالات والتصريحات العامة. (...) والأطروحة التي يدافع عنها هي التالية: «إن الاستشراق ناتج عن العلاقات الحميمة الخاصة التي عاشتها بريطانيا وفرنسا مع الشرق. ولكن هذه الكلمة الأخيرة (أي الشرق) لم تكن تدل في الواقع حتى بداية القرن التاسع عشر إلا على الهند وأراضي التوراة. (...) ولكي يبرهن على ما يقوله فإن السيد سعيد يطلق بعض الأحكام التعسفية جداً. فشرقه محصور فقط بالشرق الأوسط، والشرق لديه محصور بجزء من العالم العربي.

وهو إذ يحذف الدراسات التركية والفارسية من جهة، ثم الدراسات السامية من جهة أخرى، فإنه يعزل الدراسات العربية عن سياقها التاريخي والفيلولوجي في آن معاً. وهكذا تقلصت المدة الزمنية للاستشراق ونطاقه الجغرافي بالطريقة نفسها» (مسألة الاستشراق ص١٦٨- ١٦٩ من كتاب «الاستشراق بين دعاته ومعارضيه» دار الساقي لندن ١٩٩٤ ترجمة هاشم صالح) واتهم إدوارد سعيد بمحدودية الزمان والمكان والمضمون، وأشار إلى إهماله بعض المستشرقين وأشار إلى الانتقائية وإلى التواء المقصد حتى أنه ذكر عبارات نابية من مثل قوله: «فلكي يبرر مقصده يلجأ إلى إطلاق سلسة من الاتهامات الوقحة» (ص. ١٧٢) حين أشار سعيد إلى نهب ساسي للأرشيفات الشرقية والنصوص التي فرزها ونقلها معه إلى فرنسا. وتحدث عن اهماله للمستشرقين الروس وإلى عدم اطلاعه على بعض دراسات الحلقات الدراسية في بعض الجامعات، وقد أظهر غضبه لرواج «الاستشراق» مما جعله يطلب إعادة النظر في النظام الجامعي الأمريكي (ص. ١٧٧) وحاول أن يشكك في جدارة سعيد للتصدي للاستشراق وشكك في فهمه لبعض النصوص ومنها النصوص العربية.

وبدا مكسيم رودنسون موضوعياً في نقده لإدوارد سعيد إذ بيّن مزايا سعيد التي أهلته لأن يكون مفكراً لامعاً، وأخذ عليه بعض المآخذ المهنية التي رأى أن أهمها يرجع إلى أنه لا ينتمي إلى القبيلة أي إلى التخصص (قبيلة الاستشراق). يتحدث رودنسون عن سعيد بإعجاب لافت إذ يقول: «**أنصح أيضاً قرائي بقراءة كتاب إدوارد سعيد عن «الاستشراق» (...) إن كتاب هذا الباحث الفلسطيني الذي أصبح أستاذاً للأدب الإنجليزي والمقاون في جامعة كولومبيا بنيويورك، والذي يتمتع بثقافة أدبية كبيرة في الإنجليزية والفرنسية، لقي نجاحاً كبيراً في العالم الأنجلو سكسوني. وقد أثار في الأوساط المهنية للمستشرقين شيئاً يشبه الصدمة النفسية». (رودنسون: المقدمة الأولى لكتاب جاذبية الإسلام (ص. ١٠٥).**

وعلل هذه الصدمة لأن المؤسسة تنقد لأول مرة بهذه الحدّة من داخل العالم الغربي. وقد أيد رودنسون بعض الانتقادات التي وجهت إلى الكتاب وأضاف إليها ملاحظات أخرى يرجع بعضها إلى بعد سعيد عن حقل الاختصاص ويرجع بعضها إلى أخطاء، كما يرى، في تأويل بعض نصوص المستشرقين: «ويبدو أن نظريته تضطرب بسبب حساسيته الزائدة عن الحد تجاه ردود فعل الآخرين، أي الأوروبيين- والأمريكيين الأصليين. ومن هنا تنتج بعض آرائه وصياغاته المتطرفة.» (ص. ١٠٦).

كان سعيد دقيقاً حين كشف عن الطريقة التي أسلم بها الاستشراق الشرق للغرب عن طريق مقدرات النشر وترجمة النصوص وتفسير الحضارات وسواها



وحذر من الوقوع في فكرة عالمين متضادين. ويرى أنه مهما يكن الاستعمار قد جرّ من انحرافات و«أيا تكن أهمية كل ذلك فإنه من الضروري ألاّ ندع أنفسنا تنجرف نحو مثل هذه العقيدة، أي العقيدة القائلة بوجود عالمين لا عالم واحد، فهذا يؤدي للقضاء على العلم والفكر بكل بساطة (ص. ١٠٧). ويعترف رودنسون بأثر الكتاب بقوله: «**والواقع أن آثار وانعكاسات كتاب إدوارد سعيد قد حركت قلق المستشرقين واهتمامهم بموضوع المشروطية الاجتماعية والعرقية والثقافية لعلمهم. ولهذا السبب فلم أدهش كثيراً لأني دعيت في آذار (مارس) ١٩٨٠ من قبل المؤتمر الحادي والعشرين للمستشرقين الألمان إلى برلين لكي ألقي ضمن هذا الإطار محاضرة كانوا قد حدّدوا لي موضوعها مسبقاً: العرقية المركزية والاستشراق» (ص. ١٠٨).**

وقد قدم بعض الدارسين العرب عرضاً لأهم الملاحظات على كتاب «الاستشراق» من مثل سالم حميش في كتابه «الاستشراق في أفق انسداده» منشورات المجلس القومي للثقافة العربية الرباط ١٩٩١ (ص ص١٠٦-١١٢) ودارت معظم الملاحظات في جو النقد/ الموجه لكتاب الاستشراق. ولم تهدأ ردود الفعل على كتاب «الاستشراق» حتى هذه اللحظة. فقد جدّد السّجال حول الشّرق والغرب كتاب إدوارد سعيد المتميز «الثقافة و الإمبريالية» إذ أثار جدلاً واسعاً، ومن بين هذا السّجال ما كتبه ارنست جلنر، (Ernest Gellner) أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة كمبردج عن هذا الكتاب في (الملحق الأدبي لجريدة التايمز البريطانية) في ١٩ فبراير ١٩٩٣ ورد إدوارد سعيد عليه في عدد آخر من الملحق في ١٩ مارس ١٩٩٣ وهو ردّ بدا موجعاً اضطر جلنر أن يدافع عن نفسه بمرارة في عدد لاحق من الملحق في ١٩ ابريل ١٩٩٣.

ومهما يكن، فإنّ «الاستشراق» من أبرز الأعمال التي ظهرت في الحقبة الأخيرة التي أثارت ردود فعل واسعة النطاق. وعلى الرغم من المآخذ المقنعة التي تبدو منطقية أو علمية على الكتاب، فإن الكتاب يظّل في أطروحته الأساسية متماسكاً إلى أبعد الحدود، غنياً بالوثائق التي لا تتأتى إلا لعالم كبير يخوض في ميادين شتّى بثقة عظيمة، منبعها مؤهلاته الثقافية التي تبعث على الإجلال والإكبار، وأما مجمل الملاحظات التي أبداها النقاد من عرب ومستشرقين فقد ألمح إليها أو أشار إليها صراحة في تضاعيف الكتاب.

* أستاذ في الجامعة الأردنية.